الفصل الثالث

جَوانبُ الفـرزدق

١ ــ الفرزدق السياسى

كان الشعر صنعة تدرّ الرزق ، والشاعر صحيفة الحزب السيّارة ، والمديح نوعاً من الدعاوة الإيجابية لترويج مبادئ الحزب ، والهجاء نوعاً من الدعاية السلبية لتهديم الحزب المعارض . وكان الناس يهتمون لأحاديث الشعراء ، ويتناشدون قصائدهم فى مجادلهم ، ويتعصب كل فريق لشاعره . أما الفرزدق ــ وهو من أكبر صحف ذلك الزمان ، إذا صح لى هذا التعبير ــ فلم يستطع أن يكون مع الحزب الحاكم باستمرار ، يؤيده وينشر مبادئه ويدعو له كما فعل الأخطل ، لأن قبيلته لم تكن قريبة من الحزب الحاكم ، ولاهو استطاع أن يعاديه باستمرار ؛ لسطوة الحاكمين وعسفهم بأعدائهم ، ثم لحاجته إلى عطائهم . أفكان الفرزدق فى صميم نفسه علويًّا أم زبيريًّا أم خارجيًّا أم مرجئا أم ماذا ؟ !

الحق أنه يصعب تحقيق هذه العقدة ، وحلها ليس من السهولة بحيث نستهين به ، ولكننا نحاول .

(ا) أما الخوارج ؛ فلم يتعرض لهم ، ولكنه مدح من حاربهم كالحجاج والمهلب ، وما تطاوله على الحجاج بعد ذلك وتعرضه لهجائه بعد موته إلا إرضاء لسليمان بن عبد الملك . ولعل إيمان الخوارج العميق لم يستطع أن يخالط قلبه الجاسى (١) أو يؤثر فيه ، وهو الذى قبل ظاهر الإسلام وفعل ما يخالفه وتفلسف بعفو الله فلسفة عليها الطابع التهكمى والتعريض اللاسع .

(ب) وأما الزبيرية : فقد سبها علناً ، وكان ذلك بعد القضاء على الحزب الزبيرى ، وفى قصيدته التى يمدح بها الحكم الثقفى ابن عم الحجاج وصهره وعامله

---

(١) الجاسى : الصلب القاسى .

على البصرة . والحجاج — كما نعلم — عدوّ الزبيرية الأول ، والمحمد أنقاسها ، وصالب زعيمها عبد الله ، وهادم الكعبة بيت الله إذ كانت موئله ومعتصمه . فشَتْمُ الفرزدق الزبيرية بعد القضاء عليها ليس إلا باباً من أبواب مجاملة الحزب الغالب يقول :

فالأرض لله ولاّها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذى قد كان قام به كذّاب مكة من مكر وتخريب

ونحن نعلم أن عبد الله بن الزبير لم يكن كذاباً — وإن كان بخيلاً على الشعراء — وليس هو الذى خرب الكعبة ، بل الذى هدمها بالمنجنيق هو : الحجاج عامل بنى أمية . فما معنى هذا التحامل إذن ؟ وما معنى وصم ابن الزبير بالكذب ؟ ! إنا مهما تحرّينا فلن نجد لذلك سبباً إلا إرضاء آل الحجاج وبنى أمية من باب الكذب على الأموات !!

(ج) وأما الشيعة : فالشريف الرضى — وهو زعيم العلوية فى زمنه — يحاول أن يزجّ الفرزدق فى جملة شعرائهم والمنافحين عنهم . ويذكر الرواة عن طريق العلوية ، قصة وقوفه أمام هشام بن عبد الملك وإنشاده القصيدة الميمية المشهورة فى مدح زين العابدين والتى يقول فيها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِــل والحرمُ

وهذه القصيدة مختلف فى صاحبها وفى من قيلت فيه ! ! ولو فرضنا أنها صحيحة وأنها قيلت حقًّا فى زين العابدين لما كانت دليلاً على علويته ، لأنا لا نجد فى ديوانه — على ضخامته — قصيدة علوية سواها ، فى حين نجد أكثر من خمسين قصيدة فى الأمويين وعمالهم وولاتهم ، فكيف نوفق إذاً بين هذا وبين رأى الشريف الرضى ؟

ولا بأس من الاستطراد قليلاً فنذكر سبب إنشاد هذه القصيدة ، يقال : إن هشاماً كان على شرف عال يشاهد الزحام حول الكعبة وتهافت الناس على تقبيل الحجر الأسود ، وقد حاول هو نفسه أن يصل إليه فلم يستطع ، وبينما هو كذلك إذ انفرجت الناس فجأة وانشقت لعلى بن الحسين ، زين العابدين ،

بينهم فرجة كالطريق حتى قبل الحجر وعاد . فسأل واحد من أهل الشام هشاماً عنه فقال : « لا أعرفه » استصغاراً لأمره ولكى لا يلفت أنظار من حوله إليه . وكان الفرزدق حاضراً يسمع ، فأخذته الحمية فقال : « أنا أعرفه » ! ! ثم وقف ينشد هذه القصيدة مرتجلاً . ونحن لا نستبعد الارتجال على الفرزدق خصوصاً أن لينها دليل عليه . ولكن بعض الرواة ينفيها عنه ألبتة ويرويها لداود ابن سالم فى خثم بن العباس . وبعضهم يرويها للحزين فى عبد الله بن عبد الملك وهو عند عبد العزيز بن مروان فى مصر . وغيرهم يرويها لخالد بن يزيد مولى خثم فيه . ويؤكد صاحب الأغانى أن الأبيات : فى كفّه خيزران . . . ويغضى حياء... للحزين ؛ والبيت : يكاد يمسكه . . لداود بن سالم فى خثم بن العباس .

وكيفما كان الأمر فالشك فى نسبة هذه القصيدة إلى الفرزدق شك واضح وهى بالتالى ، لا تدل على علويته مطلقاً .

(د) وأما الحزب الأموى : فإنا نجد له فيه خمس ديوانه تقريباً ، وكثيراً من المطولات فى مدح عبد الملك والوليد وهشام . ولكنا لا نلمس فى مديحه عاطفة ولا حبًّا ولا إعجاباً . فمن أى الأحزاب هو إذن ؟ وإلى أيها هو أميل ؟ ! الذى صح عندى أنه لم يكن منتمياً إلى حزب معين ، بل كان يتجه مع المعارضة حيث اتجهت ، ولكن لا يقودها ولا ينفخ فى نارها ولا يتولاها بعناية خاصة . وما مدائحه فى بنى أمية إلا نوع من الملق السياسى ومزيج مضطرب من الحاجة والطمع والطموح معاً . ولكن هذا الملق لم يشفع له عند زياد بن أبيه ، فاضطر إلى أن يفرّ من وجهه فى البلاد ويشنّع عليه بأهاجيه اللاسعة ، زادت القصائد الكاملة فيه ، على العشر ، وطفق يعرّض به فى كل مناسبة ويسبه أشنع سبّ . فإذا هجا جريراً تذكر زياداً بشتيمة ، وإذا رثى مسكين الدارمى زياداً هاجمه الفرزدق فهجاه وهجا زياداً معه . وإذا ذكره بعد موته قال إنه جيفة :

أبلغ زياداً إذا لاقيت جيفته أن الحمامة قد طارت عن الحرم

وسجد لله شكراً حين بلغه موته ، فقد كان أشدّ العمال عليه حتى قطعه خوفاً وبقى طريداً عن البصرة إلى أن مات زياد فعاد إليها وقلبه مفعم بالشماتة . وزياد

— كما نعلم — عامل بنى أمية الممتاز وموطّد ملكهم قبل الحجاج الذى يعدّ تلميذه . وعلى هذا فلم يكن الفرزدق أمويًّا ولا منتمياً إلى حزب معين ، ولكنه مع الضعيف المظلوم حتى يقوى وعلى الظالم حتى يطامنه ، فالعلويون ظلموا ظلماً فاحشاً وأوذوا كثيراً وعذّبوا حتى رقت لهم قلوب الناس وعطفت عليهم شفقة ورحمة. فقصيدة الفرزدق فى ابن الحسين — وإن صدقت — لم تكن إلا وليدة عاطفة موقتة عارمة ، عصفت فى نفسه لحظة أنشدها فيها بحماسة استغلّ بها العلويون اسم الشاعر أيما استغلال . ثم لم تلبث هذه الثورة أن تلاشت بين ذهب الأمويين وبطشهم ، فعاد يضرب على وترهم وينشد أغانيهم . وكان الأمويون يستندون فى حق تملكهم إلى مقتل عثمان . وكلما خمدت هذه الفكرة فى أذهان الناس أثاروها ببراعة وحذق ، وعرف الشعراء ذلك منهم فرددوها لهم ، لأنها النغمة المستحبة لديهم ، ولم يشذّ الفرزدق على هذه القاعدة . فأكثر من ذكر عثمان وأيد حقّ الأمويين به .

* * *

ونحن نعلم أن هذه الفكرة لا يقبلها العلويون بل يحاربونها بشدة . ومع هذا فقد رددها الفرزدق فى أكثر من عشرين قصيدة . فهل يعقل بعد هذا أن يكون علويًّا محضاً ؟ ! ولعل الرأى الذى قدمناه فيه هو أقرب الآراء إلى الصواب إن لم يكنه ! فالفرزدق شاعر معارض . ولكنه لا يتقيد برأى حزب معين ، بل ينصر الضعيف أيًّا كان . ويحارب الظالم ويتطاول عليه ويغمز من جانبه مهما يكن شأنه وحوله وطوله . يؤيد ذلك بعض ما ورد عنه أنه كان يهجو ابن هبيرة إذ كان والياً على العراق :

تفهق بالعراق أبو المثنى وعلّم أهله أكل الخبيص

فلما عزل وسجنه خالد القسرى ؛ مدحه وهو فى السجن ، وهجاخا لداً هجاء مرًّا :

فقد حبس القسرىّ فى سجن واسط فتى شيظميًّا ما ينهنهه الزجر

وكذلك رده الجائزة التى قدمها له زين العابدين لما بلغه مديحه إياه أيام هشام بالقصيدة الميمية . ردّ الجائزة وقدرها أربعة آلاف درهم وأرسل إليه يقول : إنما مدحتك بما أنت أهله لا طمعاً بجدواك » هذا إذا صدق الراوى وكانت القصيدة فيه. على أنه كان يمالئ القوة أحياناً خوفاً من السجن الذى تردد عليه مراراً وخرج

منه ليعود إليه أحياناً . ويتملق لها بشكل أقل ما يوصف به أنه ملق سياسى مفضوح . وذلك بهجو المعارضين وإن كان له فيهم أماديح سابقة ، فقد مدح الحجاج فى حياته ورثاه بعد موته ، ولما اعتلى سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة — وكان يكره الحجاج ، فشتّت شمل آل بيته ، وعزل عماله ونكل بهم — ظاهره الفرزدق فى هذه النزعة الانتقامية وهجا الحجاج وتحامل عليه . ولما لام فى ذلك اعتل بعذر واه جداً فقال : « نكون مع الرجل ما كان الله معه ، فإذا تخلّى عنه تخلينا نحن عنه أيضاً » !! وهذه القصة تدلنا — كما رأيت — على لون راسخ من ألوان السياسة زمن بنى أمية . وكان الأمويون أنفسهم يخافونه ويخشون لسانه كما تخاف الحكومة الصحف المعارضة فى زماننا فتسترضيها إن أمكن إرضاؤها ليسلس لها قيادها . والتاريخ يحدّثنا أن مروان بن الحكم لما كان عاملاً على المدينة وبلغه أن الفرزدق يشرب الخمر ويدخل على القيان وينشد الشعر ، طرده من المدينة بتحريض من أهلها ولكنه لم يجرؤ ان يحدّه الحدّ الشرعى كما طلبوا منه بل قال لهم : « أكتب إلى عاملى أن يحدّه ويحبسه » . ثم راجع مروان نفسه وأشفق من لسانه فبعث وراءه بمئة دينار وراحلة إسكاناً له وخوفاً من هجائه .

٢ — الفرزدق الشاعر

شعر الفرزدق نموذج كامل للغة الأموية والعقلية الإسلامية صدر دولة بنى أمية ، ولهذا لم يخرج موضوع شعره عن الهجاء والمديح والغزل والفخر إلا قليلاً جداً ، تلك المواضيع البدوية التى قال فيها الجاهليون أحقاباً طويلة ، وقال فيها الإسلاميون كذلك ، ولم يزد عليها إلاّ ألفاظاً إسلامية قليلة ؛ كالإسلام ، والخلافة ، والله ، وإمارة المؤمنين ، وما شابه ذلك مما اقتضاه تغير الظرف الاجتماعى والتطور العقلى طوال قرن كامل . ولقد عرف له القدماء ذلك فقال أبو عمرو بن العلاء : « لم أرَ بدوياً أقام فى الحضر إلاّ فسد لسانه غير رؤبة والفرزدق » فهو يقرّ معنا بالنفس البدوية التى يحملها الفرزدق بصراحة .

ومن عادة الفرزدق أن يتناول الموضوع الذى يريده رأساً فلا يوطئ له فى

الغالب بمقدمة غزلية أو تذكارية للدمن والأطلال والأحبة ، على ما جرت به عادة الشعراء قبله إلا قليلاً ، ولا يطول نَفَسُه إلاّ فى النقائض أو المدائح الكبرى. وقد سئل عن ذلك مرةً فقال : « إنها أسير فى المحافل » ، فهو يقتصرها عمداً لتنبثّ فى صدور الناس وتنتشر فى سمرهم ومجادلهم . وسنعرض فيما يلى للفنون التى تناولها شعره مبتدئين بالهجاء لأنه أول ما عرف به ولاشتهاره بحرب المهاجاة والملاحاة أربعين عاماً متوالية من حياته .

(١) الهجاء :

هجاء الفرزدق عليه طابع خاص لا يشابهه فيه شاعر من شعراء اللغة العربية فهو زعيم هذه الطريقة فى الهجاء ، ولو كان فى هذا النوع مجال للفخر ؛ لكان له وحده من غير شك ، ولكنه فخر منقلب على قفاه يتدنى به ويسفل حتى يدرك الحضيض من البذاءة والوقاحة . يستعمل ألفاظاً غاية فى القذارة ويتطاول إلى أعراض المهجو فيسب الأم والأب والأخت والزوجة والقبيلة سبًّا قبيحاً جدًّا ، ويمزج هذا السب بالفخر فيتعالى بنفسه وشعره وقبيلته إلى السماء ، ويضع نفسه فى موضع يتضاءل دونه المهجو حتى تحسبه قد انجحر فى نافقاء خلد خجلاً واستحياء ، ويعدّد أيام قبيلته وانتصاراتها وزعماءها وشعراءها ، ويقرن ذلك بمخازى المهجو وانكسارات عشيرته وأيامه السود ، ويحشوه بالشتائم حشواً . بل يقذفها فى وجهه قذفاً قاسياً ويثله أشدّ ألم حتى يبكيه . ولذلك كانوا يخشون سلاطة لسانه ومعرّة مقوله فيتحاشونه ، ولم يثبت له إلاّ جرير ، على ما فيه من عفة وأدب بالقياس إليه .

ولم يكن الفرزدق يعف فى هجائه عن تناول النساء بالمسبة والإقذاع ، ولعل هذا التطاول منه عليهن جعل تلك المرأة الكلابية التى هجا قومها تعوذ بقبر أبيه لكى لا يذكرها فى شعره بسوء فقال :

عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب فلا والذى عاذت به لا أضيرها

* * *

(ب) المدح :

كان المديح نوعاً من الدعاية الحزبية ينال عليه الشاعر أجراً يتساوى مع مقداره وقوته وشهرته والحاجة إليه . . . ولقد مدح الفرزدق خلفاء بنى أمية وعمالهم ونال أعطياتهم وجوائزهم ، مع أن مدحه لم يكن عن إخلاص وحب كمدح جرير أو الأخطل ، ولم يخرج فى أسلوبه المدائحى عن الجاهلية إلاّ قليلاً . يقدم القصيدة بالغزل أو ذكر الديار والدمن . ويذكر ناقته وما قاست من مشاقّ وما قطعت من فلوات حتى نهكت وحفيت قبل الوصول إليه وأدمى خفافها طول السرى والتأويب ، ثم يؤيد حزبهم وفكرتهم كحق إرثهم فى الخلافة بعد مقتل عثمان ثم يذكر أهله وكيف فارقهم فى جدب وقحط وحاجة ويسترفد العطاء صراحة . وهو فيما بين هذا وذاك يحشوا المديح فخراً وتعاظماً حتى ليختلط عليك المديح بالفخر .

وكان ملحفاً بالسؤال أحياناً لا يستحى أن يطلب من الكرام وهم فى السجن. قيل : دخل مرة على سلم بن زياد بن أبيه وهو مسجون وشكا إليه قلة المال فى يده وطلب منه فأعطاه . وجاء المدينة مرة فى عام جديب فقال الناس لعمر بن عبد العزيز — وكان واليها — أعطه شيئاً لا يلحف على الناس بالطلب فإنهم فى ضيق ، فأعطاه . ثم رئى بعد ذلك على باب أحد السراة يمدحه طالباً !!

ومدح مرة آل المهمّل فقال :

على ذى مناد تعرف العيس متنه ... كما تعرف الأضياف آل المهمّل

فلما لم يعطوه شيئاً هجاهم فقال :

ألا قبّح الله القلوص التى سرت ... برحلى إلى خصيان آل المهمّل

بنى أمّ عيلان كأن لحاهم ... مخالى شعر علقت فوق أبغل

وهكذا لم تكن مدائحه تدل على عقيدته قط ، فقد هجا هشاماً ثم مدحه لما صار خليفة وهجا ابن هبيرة ثم مدحه . هذا إلى كثير غيرهم . فلا أهاجيه تدل على كرهه الدائم ولا أماديحه تدل على حبه الطويل ، ولكنه كان امرءاً عصبى

المزاج ككل أهل الفن يتأثر بسرعة حبًّا أو غضباً فيصور نفسه فى وقتهما ذلك فقط . إلا أهاجيه التى ذهبت مع عمره وردّدها طول حياته فى جرير فقد كان يكرهه ويغار منه لشاعريته حقًّا . وإذا صدقت قصيدته التى مدح بها زين العابدين فإنها تدل على إجلاله العميق له وإيمانه به ، ومهما شك فى أمرها أو فى بعض أبياتها فإن الباقى له يصور عمق ذلك الإجلال والإيمان إذا ارتجلها بحماسة تظهر جليًّا فى ترداده بكلمة « هذا » مرات متعددة ، وفيها ما فيها من تعظيم وتوقير .

(حـ) الفخر :

نشأ الفرزدق فى قبيلة قوية الشكيمة ، أبيّة ، اعتدت فى الجاهلية على الحرم ، ولم ترع لدين الناس حرمة ، ولا لما تواضعوا عليه من عبادة ووقار . وكذلك كانت فى الإسلام . وورث المجد من طرفيه : من قبل أبيه ومن قبل أمه ، فجده صعصعة محيي الموءودات ، وفد على النبي فأسلم وقص عليه ما فعل فمدحه . وأبوه غالب المشهور بكرمه ، نحر فى يوم واحد مئة ناقة ، وكان الفرزدق طفلاً فكان يردّ عليه النوق ويقول : « يا أبت اعقر » . وأمه لبنى (أو ليلى) أخت العلاء ابن قرظة الشاعر ، وأم أبيه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس المشهور بالشجاعة والجود . ولقد ورث الشعر عن جده صعصعة وعن خاله العلاء فلمَ لا يفخر ولا يشمخ بأنفه على الناس ، فى عهد كان المجد الإرثى كل المجد والفخر بالجدود كل الفخر ؟ ! فهو يفتخر بدارم ثم بتميم ثم بمضر . يقول :

فهل ضربة الرومى جاعلة لـكم ... أباً عن كليب أو أباً مثل دارم

* * *

أتوعدنى قيس ودون وعيدها ... ثراء تميم والعوادى من الأسد

* * *

إذا مضر الحمراء حولى تعطفت ... علىّ وقد دقّ اللجام شكيمى
أبت أن أسوم الناس إلاّ ظلامةً ... وكنت ابن مرغام العدوّ ظلوم

ويفتخر بعد هذا بنفسه وبشعره ، ويشير إلى قصائده المشهورة كقوله :

فـكيف تردّ ما بعمان منها ... وما بجبال مصر مشهّرات

غلبتك بالمقفّى والمعنى وبيت المحتبى والحافقات

والمقفّى والمعنى والمحتبى والحافقات إشارات إلى أربع قصائد له مشهورة ذكرت فيها هذه الألفاظ وذهبت فى العرب مذهب الاستشهاد ومضرب المثل :

وقد يغالى فلا يرى أحداً فوقه أو فوق قومه حتى الخليفة ، فإنه لا يعدّه أكثر من كفء . قيل تلاحى مرة وجريراً عند يزيد بن عبد الملك فقال الفرزدق : « أما بك يا عيار بنى كلب فلا ، ولكن إن شاء صاحب السرير ؛ فلا والله مالى كفء غيره » .

ولعل هذه العنجهية البدوية قد غُرست فى نفسه منذ الطفولة ، يدلنا على ذلك قصيدته التى قالها وهو غلام يرعى لأمه غنماً ، إذ أغار الذئب عليه فأخذ كبشاً . ولما رجع إليها لامته على تقصيره ، فوجد للذئب عذراً ووصفه بالحزم ، وقال عن نفسه إن همته فوق الرعى ، فهو يرنو إلى الأمور العظام[1] :

ويكثر فى فخره من تعداد أسماء أجداده وأمجادهم وآبائهم ، ولا يمل تكرارها فى كل قصيدة ، حتى لتحسب الفخر قد طما على كل عاطفة فيه ، ويرددها لدى كل مناسبة حتى لتستطيع أن تعد الأسماء حين يبدأ بسردها قبل أن تقرأها . كحابس ودارم ونهشل وغالب . . . إلى آخر القائمة . وهو يفتخر بمضر لأن النبى منها وهى بذلك فى الذروة من الشرف . ويذكر النبى فى كثير من المناسبات ويعظمه ثم يفتخر به :

ومنا رسول الله أرسل بالهدى وبالحق جاءت باليقين نوادره

والخلاصة أنه لا يجد منفذاً للفخر إلا طلبه ، ولا درجة للتعاظم إلا ارتقاها حتى بلغت به دركة الوقاحة . يحكى أنه دخل على بلال بن أبى بردة وأنشده قصيدة يقول فيها :

فإن أبا موسى خليل محمد وكفاه يمنى للهدى وشمالها

فقال له ابن أبى بردة : هلكت والله يا أبا فراس !

فارتاع الفرزدق وقال : كيف ذاك ؟ !

---

(١) انظر المنتخبات فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

قال : ذهب شعرك ، أين مثل شعرك فى سعيد وفى العباس بن الوليد . . . وسمى قوماً آخرين .

فقال له الفرزدق على الفور : جئنى بحسب مثل أحسابهم حتى أقول فيك كقولى فيهم .

فثار بلال غضباً حتى دعا له بطست فيه ماء بارد غمس يديه فيه ليسكن ثائره .

ودخل على سليمان بن عبد الملك ينشده فافتخر عليه وقال :

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الليل وهى تلفهم ... إلى شعب الأكوار من كل جانب

إذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها ... — وقد خصرت أيديهم — نار غالب

فتجهم وجه سليمان . واستنشد نصيباً الشاعر الأسود فمدحه فتهلل وجهه وقال للحاجب : يا غلام ! ! أعط نصيباً خمسمائة دينار ، وألحق الفرزدق بنار أبيه !

وكان الفرزدق بعد هذا يرى العرب خير الخلق ، وأما الموالى والعلوج فليسوا فى الطبقة الثانية بعد العرب بل فى الطبقة الخمسين ، لذلك يجب أن لا يقتص من العربى الصريح إذا قتل مولى من الموالى ، كما يجب أن يعفى المولى من القصاص لأنه دون موضع الخصومة يقول :

هم كرهوا القصاص من الموالى ... وهم قصوا الصريح من الصريح

فهذه الأرستقراطية المتعجرفة هى التى كرهت بنى أمية به ونفرتهم منه وأقصته عن مال الحكومة وجاهها . ولكنه مع ذلك كان يثب إلى الشهرة وثباً ، بل كانت الشهرة تزحف إليه خاضعة راضية .

(د) شعر الغزل :

لم يعرف الحب الصافى إلى قلب الفرزدق سبيله قطعاً ، لأنه لم يكن ينظر إلى المرأة نظرة احترام وتقديس ، ولم يكن يراها ترتفع عن درجة قضاء الشهوة للرجل وللحمل . فهو لم يكن يكرهها إذن ، ولكن كان يمتهنها ويشتهيها شهوة قاتلة طوّحت به فى كثير من المناسبات وعرضته لمآزق حرجة ، فكان يوصل حباله ويتدلى من علو ثمانين قامة ليجتمع بالمرأة :

هما دلّتانى من ثمانين قامـــة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسره

ويتعرض لمضيفته فيراودها عن نفسها ، فتكون هذه الحادثة سبباً فى نفيه عن المدينة . وكان يجد المرأة حراماً أطيب منها حلالاً . تزوج عدداً من النساء ولكنه لم يكتف بهن بل تعرّض لجاراته حتى شكته إحداهن للنوار وأنه يلاحقها بوعد ، فقالت لها واعديه وأعلميني ففعلت . وفى الوقت المضروب استقبلته المرأة وقادته إلى حجرة وأطفأت السراج ، ثم سمعها تقول له : يا عدوّ الله يا فاسق ! ! فعرف فيها صوت النوار ، إذ كانت المرأة قد اختفت وراء سجف بعد أن أطفأت السراج ، وظهرت زوجه النوار مكانها ، وعرف أنه خدع فقال لها : « وأنت هى ؟ ! يا سبحان الله ما أطيبك حراماً وما أردأك حلالاً ! ! » .

فهو إذا أظهر التألم فى غزله فإنما الشهوة التى تقرضه لا الحب . ولم يتخذ الغزل فنًّا قائماً بذاته كما فعل عمر بن أبى ربيعة : بل كان يتخذه واسطة لافتتاح قصائده فى المديح والهجاء وسوى ذلك . بلى هناك قصيدة واحدة فقط أنشأها على طريقة الوصف القصصى ذكر فيها مغامرة من مغامراته الغرامية ، إذ ارتقى بالحبال إلى معشوقته والأبواب دونها مغلقة وعليها الحراس ووصل إليها وزوجها نائم. يصف كل ذلك وصفاً متقناً مطولاً حتى إذا وصل إليها ، وصف تمتعه بمجلسها فى بيتين فقط ، ثم يفاجأ بصياح الديك فيرتبك ويسألها كيف النزول الآن ؟ فتقول : أما الباب فلا سبيل إلى فتحه لوجود البوابين الموكلين بحراسته ؛ ثم إن مفاتيحه مع زوجها . ويقترح عليها أن تدليه بالحبال التى أصعدته فينزل وهو متكل على الله ! ! [1] .

وهذه القطعة تشبه مغامرات ابن أبى ربيعة وامرئ القيس . ونحن لا نشك فيها لعلمنا بفسوقه ومغامراته . ولكن أسلوبها جاف غليظ لا يشبه شعر التشبيب والحب فى شىء ، إلا أنها من ناحية العرض الفنى كقصة شعرية تكاد تكون كاملة . وكان هو نفسه يعرف ذلك من شعره ويقر به لذلك قال : « ما أحوج جريراً إلى صلابتى لعفافه ، وأحوجنى إلى رقته لعهرى ! ! » .

---

(١) انظر المنتخبات فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٥) شعر الرثاء :

الفرزدق بدوى العاطفة قاسيها ، يفهم الحياة على أنها طريق : أولها ظلام القوة الأزلية فى الرحم ، وآخرها ظلام الأبدية فى القبر . ولا يرى فى الولادة إلا حادثاً طبعيًّا غاية فى البساطة لا يفرح ولا يسر . كما أن الموت حادث عادى لا يبكى ولا يؤلم . لذلك لا ترى له فى الولادة شعراً أبداً . وأما فى الرثاء فليس له عاطفة تشعر بالبعد الأبدى والسفر اللانهائى فى الموت ، ولذلك لا ترى له شعراً رثائيًّا رقيقاً . وما كان عارس الرثاء إلا على أنه نوع من فنون الشعر وعليه ألا يقصر فيه . انظر إلى رثائه أولاده وأباه — وهم أقرب الناس إليه — إنك لن تجد فيه عاطفة الأبوة ولا البنوة واضحة ، بل كان ينظر إلى أولاده كما ينظر التاجر إلى تجارته يأمل بها الربح . فهو يربيهم ليدفعوا عنه المشاغبين إذا كبر ويقودوا له البعير إذا أسنّ :

ولكنهـــم ريحان قلبى ورحمة من الله أعطاها مليك العواقب
يقودون بى إن أعمـــرتنى منية وينهون عنى كل أهوج شاغب

وينظر إلى زوجته المفقودة نظرة احتقار ، وبدلا من أن يشيعها بدمعة يلحقها بلطمة ازدراء ، ويمتنع عن زيارة قبرها ويراها أقل من أن يضيع وقته بالوقوف على قبرها لحظة يسأل الله لها الرحمة ، لأنها أهون مفقود :

ولست وإن عزّت علىّ بزائر تراباً على مرموسة قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت نالـــه على المرء من أصحابه من تقنعا

ولما ماتت النوار لم يستطع رثاءها بشىء يناح به عليها ، فبكاها النوائح بشعر جرير ، وكان ذلك عليه أشد من القتل لغيرته وحسده . ويروى ابن نباتة الثقفى أن الفرزدق أنشده قصيدته التى يرثى بها ابنه فلما انتهى إلى قوله :

بنى الشامتين الصخر إن كان مسنى رزية شبل مخدر فى الضراغم

قال : يا يحيى أرأيت ابنى ؟

— قلت : لا .

— قال والله ما كان يساوى عباءته .

فانظر إلى هذه العاطفة الجامدة وهذه الأبوة التى لا ترى فى الولد روحاً وريحاناً ولكنها تنظر إليه كالبضاعة المعروضة فى السوق يتفقدها الشارى ويقوّمها ويساوم عليها ويقدر أنها لا تساوى أكثر من عباءة .

(و) شعر الوصف :

شعر الوصف قليل جداً فى ديوان الفرزدق ، وإنك لا تكاد تقع إلا على أبيات متفرقة فى ثنايا قصائده ، ولكنها قوية رائعة كلمسة رسام بارع . أما قصائده الوصفية فمحدودة أشهرها اثنتان : الأولى وصف تسلقه الحبال إلى معشوقته ؛ والثانية وصف الذئب . وقد اشتهرت هذه القصيدة وكثرت المقارنة بينها وبين قصيدة البحترى وقصيدة الشريف الرضى وقصيدة الشاعر الفرنسى ألفريد دوفينى لاشتراكها جميعاً فى وصف الذئب . والذى نراه ؛ أنه لا تمكن المقارنة بين هذه القصائد الثلاث مقارنة صحيحة ، فكل شاعر منهم نظر إلى ناحية . فالفرزدق خلق من الذئب شبحاً عاقلا ودعاه إلى طعامه واتخذ ذلك وسيلة للفخر ، ونظم المعنى نفسه فى قصيدة أخرى سينية تكاد تشبهها حتى بألفاظها . والبحترى وصف الذئب الجائع وصفاً دقيقاً ثم صور المعركة التى قامت بينهما ثم تغلبه عليه واشتواءه شيئاً من لحمه والتبلغ به ، فكأنه يرمز بذلك إلى قانون تنازع البقاء وحق القوة وقوة الحق . . . أما ألفريد دوفينى فيصور لنا العظمة الصامتة فى موت الذئب وسكون أعصابه ومقابلته الموت بنفس أعظم منه وقلب أقوى . فكأنه يصور لنا العظمة والإباء والتعالى . هذا وقد أكثر الفرزدق من وصف الشيب وكبر السن ولكن ليس فى وصفه صور جديدة تسترعى الاهتمام .

(ز) ملحمة الفرزدق :

نظم الفرزدق قصيدة طويلة بدأها بالغزل كالعادة ، وختمها بهجاء جرير ، وتوسط فيما بين هذا وذاك بالفخر والكرم . أجاد فيها الشكوى ، ووصف الناقة والشتاء المجدب وإطعامه الآكلين . . . حتى كادت صورها تنطق . وتبلغ مائة وواحداً وعشرين بيتاً متماسكة متشابكة كأنها لوحة فنية معروضة فى متحف .

ومن قرأها فكأنما قرأ الفرزدق كله وتكشفت أمامه جميع نواحيه الخلقية والأدبية وخصائصه الفنية فى شعره . مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

ولما كانت طويلة جداً ، بل هى من أطول قصائده تقريباً فإننا نكتفى هنا ببيان رؤوس موضوعاتها ونحيل القارئ على النماذج فى الجزء الثانى ليقرأها بهدوء ونأسف أن هذا الكتاب لا يتسع لتحليلها تحليلاً مطولاً .

تقسم القصيدة إلى ستة أقسام :

١ — غزل وتشبيب (١ — ٣١)

٢ — وصف الناقة (٣٢ — ٣٣)

٣ — شكوى ومناجاة (٣٤ — ٤٣)

٤ — وصف الشتاء المجدب وفخره بإطعام الناس ووصف الطعام والآكلين (٤٤ — ٥٩)

٥ — فخره بقومه (٦٠ — ١٠٣)

٦ — هجاء جرير وسب نسائه (١٠٤ — ١٢١)

ويلاحظ فى هذه القصيدة أن أطول فصولها هو الفخر . يليه الهجاء ، ثم الغزل . وأقله هو الوصف لقلة بضاعته منه .

٣ — تأثره وتأثيره

لم يكن تأثر الفرزدق بالمحيط الإسلامى عميقاً مع أنه نشأ فى البصرة . والبصرة مركز الحركة الثقافية فى صدر الدولة الأموية ، بل ظل بدوياً فى أخلاقه وحياته ولغته وشعره . تحرّ جميع ديوانه وراجع كل أخباره فلا تقع إلا على قليل جداً من العادات الاجتماعية التى كانت فاشية فى عصره .

أما ألفاظ : الدين ، والله ، والنبوة ، والخلافة فكثيرة ، وهو يعير بالكفر ويفتخر بالإسلام ويعتز بالدين . . لكن هل كان ذلك عن اعتقاد عميق وإيمان صريح؟ ! أفلو كان النبى من غير قريش والحكام من غير مضر أكان افتخر

بالدين وبالنبوة وبالإسلام ؟ ! أليس لنا من حياته الداعرة دليلٌ على أن تأثره بالدين لم يكن إلا سطحيًّا وأن افتخاره به لم يكن إلا من باب الافتخار بالقبيلة على هيئة أوسع ؟ ! فقوله :

قوم أثيبوا على الإحسان إذ ملكوا ومن يد الله يرجى كل تثويب

* * *

ومنا رسول الله يتلو كتابه به دوّخت أوثانها ويهودها
وما بات من قوم يصلون قبلة ولا غيرهم إلا قريش تقودها

* * *

فدراسة الفرزدق تطلعنا فى الحقيقة على الناحية السياسية فى عصره بوضوح . أما نواحى المجتمع الأخرى فلا سبيل إلى دراستها فى شعره بالتفصيل . ولا تتألق فى ديوانه إلا كلمات البرق الخاطف لايكاد يتقد حتى ينطفئ .

والفرزدق نسيج وحده فى شعره . له ديباجته الخاصة لا يشاركه فيها شاعر آخر . فلا سبيل إذن لتشبيهه بشاعر ما لتقريب وصفه . على أنّ لديه صوراً وقصصاً وجدت عند غيره ممن تقدمه حتى بألفاظها . وله صور وقصص وجدت عند سواه ممن تأخر عنه حتى بألفاظها أيضاً . وسنعرضها فيما يلى متجاورة لتتبين الفروق والمتشابهات منها فعرضها وحده يغنينا عن الشرح .

امرؤ القيس :

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل
وقوفاً بها صحبى علىّ مطيهم . . .

الفرزدق :

فعاديت منها بين تيس ونعجة وروّيت صدر الرمح قبل عنانها
وقوفاً بها صحبى علىّ كأننى . . .

عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

الفرزدق :

لنا دون من تحت السماء عليهم من الناس طرًّا شمسها وبدورها
أخذنا بآفاق السماء عليهم لنا برّها من دونهم وبحورها

النابغة :

الواهب المئة المعكاء زينها . . .
رقاق النعال طيب حجزاتهم . . .
فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب
ماقلت من سيءٍ مما أتيت به
إذن فلا رفعت سوطى إلى يدى

الفرزدق :

الواهب المئة المعكاء والغررا . . .
إنى من القوم الرقاق نعالهم . . .
إلى بدر ليل من أمية ضوءه
إذا مابدا يعشى له كل كوكب
فلارفعت ، إن كنت قلت الذى رووا ،
علىّ ردائى حين ألبسه يدى

النابغة :

فما الفرات إذا هبّ الرياح له
ترمى أواذيّه العبرين بالزبد
يمدّه كل واد مترع لجب
فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما
بالخيزرانة بعد الأين والنجد . .
يوماً بأجود منه سيب نافلة . . . إلخ

الفرزدق :

ماالنيل يضرب بالعبرين درائه
ولاالفرات إذا آذيه زخرا
يعلو أعالى عانات بملتطم
يلقى على سورها الزيتون والعشرا
ترى الصرارى والأمواج تلطمه
لو يستطيع إلى برّية عبرا
إذا علته ظلال الموج واعترکت
بواسقات ترى فى مائها كدرا
بمستطيع ندى بشر . . . إلخ

الأعشى :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به
فى جحفل كهزيع الليل جرّار
إذ سامه خطتى خسف فقال له :
قل ماتشاء فإنى سامعٌ حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما
فاختر وما فيهما حظٌّ لمختار

الفرزدق :

وفاء أخى تيماء إذ هو مشرف
يناديه مغلولاً فتى غير جأنب
أبوه الذى قال اقتلوه فإننى
سأمنع عرضى أن يسب به أبى
فأدّى إلى آل امرئ القيس بزه
وأدراعه معروفة لم تغيب

فشك غير طويل ثم قال له
اقتل أسيرك إنى مانع جارى
فاختار أدراعه كى لايسب بها
ولم يكن عهده فيها بختار

* * *

وغير هذا كثير كوصف الناقة الذى تجده عند النابغة وتشبيهها بالثور الوحشى إذ بات ليلة صردة ضيفاً على أرطاة يحتمى بها حتى إذا لاحت تباشير الصباح شعر بأنه محاط بصيادين ومعهم كلبهم فعادى بينها هنا وهناك ثم شكها بقرنه واحداً بعد الآخر وانفلت كالكوكب الدرى يخلط تقريباً بإحضار . هذه الصورة تجدها عند الفرزدق وعند الأخطل كذلك .

وبلغ من تأثيره فى بيئته أن أصبحت لبعض أبياته شهرة خاصة تغنى الإشارة إليها عن ذكرها كوصفه الريح مثلاً ، خذ قول أحدهم :

وريح تضل الروح عن مستقره وتستلب الركبان فوق الركائب
فلو أنها ريح الفرزدق لم يكن لها ترةٌ من جذبها بالعصائب

وهل وصف البحترى الذئب إلا فكرة الفرزدق تحولت إليه فصاغها فى قالبه ؟ وكذلك قل فى الشريف الرضى ؛ على أن الشعراء الذين قلدوا الفرزدق قلائل جداً ، وليس وجود هذه الأفكار والصور عند من تقدمه أو من تأخر عنه دليلاً على سرقتها . كلا بل هى أفكار شائعة نسجها كثير من الشعراء كل على منواله فاختلفت الصيغة وبقيت الفكرة واحدة ، وهذا ما يؤيد رأينا السابق فى الفرزدق بأنه كان يستلهم شعره من المحيط ولا يخلق . إلا أن له أبياتاً مشهورة سميت المقلدات منها :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

أخذه بشار فقال :

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وقوله :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

ونقل هذا المعنى عنه كثير من الشعراء .

٤ — جرير والفرزدق

لم تشتهر فى تاريخ الآداب حرب كلامية كحرب جرير والفرزدق . بل لا نعلم لها مثيلا فى آداب الأمم الأخرى ، فقد بقى الشاعران يتهاجيان ويتشاتمان أربعين عاماً لم يحمل أحدهما الآخر . والناس من حولهما فريقان يتعصب كل فريق لصاحبه ويدافع عنه ويضع الجوائز لمن يرفع صاحبه ويسب شاعر الفريق الآخر . وبلغ من شهرة هذه الحرب أن كانت حديث المجتمعات دائماً يهتم الناس بها ويثيرون بحثها ويختصمون من أجلها . ولم يكونوا يكتفون بالواقع كما وقع بل كانوا يضيفون إليه ما يصوره لهم الخيال ويزينونه بقصص ربما ليس لها أصل. وبين هذين الفريقين حزب متوسط يعتقد أن شيطان الشاعرين واحد وأن لكل منهما امتيازاً خاصًّا ، فهما معاً كفرسى رهان يجريان فى قَرَن واحد ولا يتسابقان :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو الكلام ومره لجرير[1]

وكانا إذا التقيا فى مجلس تغطرس الفرزدق وافتخر بآبائه وغمز من جرير فلا يجيبه أكثر الأحيان . قيل : لقى الفرزدق جريراً محرماً فقال : أفسدت على ابن المراغة حجّة . ثم جاءه مستقبلاً فجمزه بمشقص كان معه وقال له :

إنك لاق بالمشاعر من منى فخاراً فخبرنى بما أنت فاخر ؟ !

فقال جرير : لبيك اللهم لبيك . ولم يجبه .

وقدم الفرزدق الشام مرة وجرير فيها . فقال له جرير : ما ظننت أنك تقدم بلداً أنا فيه .

فقال الفرزدق إنى طالما خالفت رأى العجزة .

وحاول سليمان بن عبد الملك مرة أن يصلح بينهما فقال لجرير : مالك وللفرزدق ؟ !

فقال جرير : إنه يظلمنى .

(١) قاله مروان بن أبى حفصة . وفى رواية أخرى : ذهب الفرزدق بالهجاء وإنما . . .

فقال الفرزدق : رأيت آبائى يظلمون آباءه فسرت فيه بسيرتهم .

قال سليمان : إنكما لا تصطلحان أبداً !!

ومع أن الفرزدق كان يسبه أفظع سب ويشتمه ويسميه كلباً وخنزيراً ودنيئاً ووضيعاً وابن المراغة [1] . . . إلخ ، كان جرير لا يتدانى إلى هذه المنزلة ، بل كان يصيبه بعروبته ويعده هجيناً ، فيثور عليه الفرزدق ويسبه ويفتخر عليه بعائلته وأبيه . ولما كان الشاعران كلاهما من تميم فقد كان الفرزدق يجمع كل المحاسن فى بنى مجاشع ودارم أهله الأدنين . ويسوق كل المساوئ والأيام السود إلى كليب قبيل جرير ثم يمدح بنى تغلب لأن الأخطل منهم وهو الشاعر الذى أعانه على جرير . ولا يخرج جريراً من عائلته إلا ليصيبه بعرضه ويعيده إليها بعد أن يصمها فى أخلاقها وعرضها ونسائها :

وما يغدو عزيز بنى كليب ليطلب حاجة إلا بجار

* * *

وإنك إذ تسعى لتدرك دارمًا لأنت المعنى يا جرير المكلف

* * *

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

* * *

فإنك كلب من كليب لكلبة غذتك كليب فى خبيث المطاعم

* * *

لولا فوارس تغلب ابنة وائل نزل العدو عليك كل مكان
إن الأراقم لن ينال قديمها كلب عوى متهم الأسنان

* * *

أما جرير فلم يكن ينزل إلى هذه الدركة ، ولكنه كان ينتقم منه أحياناً بالعفو عنه . حبسه خالد القسرى مرة وهو عامل العراق فشفع فيه جرير وأخرجه من

---

(١) المراغة : الأتان .

السجن . ولما سئل جرير كيف يشفع له وهو عدوه . قال : إنه أذل له . ولما مات رثاه فقال :

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلت
هو الواقـد الميمون والراتق الثّأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت [1]

وليس معنى هذا الرثاء إقراراً له بالفضل عليه أو بتقدمه وتفوقه . ولكن عظمة الموت وسكونه أخرس لسانه وترك فراغاً كبيراً فخلا الجو من المنافسة وماتت الأحقاد . وكان سبب التهاجي بين الشاعرين أن جريراً هجا غسان السليطي الشاعر فأخمله ، فاستعان عليه بالبعيث المجاشعي ، فعرّض بجرير ، فهجاه جرير ، فخاف والتجأ إلى قوم جرير وقال : يا قوم عجلتم عليّ .

فقالوا : بلغنا عنك أمرٌ ، فإن شئت قلت كما قلنا وإن شئت صفحت .

قال بل أصفح . ثم جاورهم ثلاث سنين وارتحل عنهم راضياً ، وقدم على مجاشع قوم الفرزدق وسئل عن بني الخطفى قوم جرير فأثنى عليهم . ولكن النساء قبّحن رأيه وسفهنه وأنشدنه قول جرير السابق فيه ، فأخذته الحميّة وهجا بني كليب ، فقالت بنو كليب لعطاء بن الخطفى : اركب إلى مجاشع واستنهم عن أنفسهم فقد قالوا كما قيل لهم . ولكن البعيث — وقد أخذته العزة الجاهلية والحمية البدوية — أبى إلا هجاءهم فالتحم وجريراً بهجاء آله فيه جرير فالتجأ البعيث إلى الفرزدق ، واستعان عليه بنساء مجاشع يثرنه ، فذهبن إليه وقد قيّد نفسه بقيد ليمتنع من الخروج حتى يحفظ القرآن تنفيذاً لوصية عليّ التى سمعها منه وهو طفل بعد موقعة الجمل ، ذهبن إليه وقلن له : قبحت من شاعر قوم ، هتك جرير عورات نسائك وأنت ساكت ؟ فهاج الفرزدق وحميت فيه العصبية فهجا البعيث لتقصيره فى هجاء جرير فسقط البعيث نهائياً ثم قال :

ألا استهزأت منى هنيدة أن رأت أسيراً يدانى خطوه حلق الحجل
أتتنى أحاديث البعيث ودونـه زرودٌ فشامات الشقيق من الرمل
أنا الضامن الراعى عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

(١) الثأى : آثار الجرح والفتق . يقال فلان يرأب الثأى أى يصلح الفساد .

ولجّ الهجاء بين الشاعرين أربعين عاماً لم يخمده إلا الموت ، فكان أحدهم ينشئ القصيدة فينقضها الآخر فيجيبه الأول وهكذا . . وقد جمعت نقائضهما وطبعت فى ليدن فجاءت بجزءين ضخمين فيهما كثير من أخبار الشاعرين ومن كانت له علاقة بهما . ويجب ألا نمر بهذه القصة عرضاً ، بل ينبغى أن ننظر فيها بإمعان لأنها تعطينا صورة صحيحة عن العصبية القبلية والتكتل الحزبى زمن بنى أمية ، لأن الشاعر لم يكن يمثل نفسه فيها فقط ، بل إن القبيلة كلها كانت تشترك معه فى هجائه أو مديحه ويركب بعض زعمائهم إلى بعض ليتهادنوا بعد التهاجى . . .

٥ ــ الفرزدق ينحت من صخر

قال مالك بن الأخطل ، وقد أرسله أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق ، وسأله عنهما فقال : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » . والفرزدق نفسه يقول : « أنا عند الناس أشعر العرب ، ولربما كان نزع ضرس أيسر علىّ من أن أقول بيت شعر » . وراجت هذه الفكرة فى كتب الأدب وشاعت ولم يحاول أحد شرحها أو نقدها أو بيان نوع هذا الصخر الذى ينحت منه الفرزدق شعره ، وما مدى قسوته أو صلابته أو لينه. فلنحاول فتح هذا الباب فيما يلى :

ونزعم أن الفرزدق لم يكن شاعراً ملهماً يعتصر الفكرة من نفسه ويستصفيها من قلبه ويختلسها من هواجسه ، بل كان صدى للمحيط يتناول الفكرة منه فجّة فيخمّرها ثم ينحت منها تمثالاً يقدمه للناس صورة عما رأوا وعما سمعوا . فهو كخزان الماء العالى تتجمع فيه مياه الينبوع رويداً رويداً ، ومتى امتلأ أفرغ ما فيه من الماء بعد ترويقه وركود ما فيه من حثالة وتراب . بل هو كصحف هذا الزمان فيها المقالات السياسية التوجيهية وفيها الأخبار العامة والحوادث المحلية وكلها منتزعة من المحيط . وللفرزدق كثير من الشعر الذى يصح أن نطلق عليه اسم « أخبار محلية » لست أدرى أتصح لى هذه التسمية وأنا أتحدث عن شعر ملأ العصر

الإسلامى الأول كله ومشى صيته مع العصور حتى وصل إلينا وعليه طابع قديم موسوم بجملة تجعله فوق مجال التشكك والنقد : « لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة» خذ القطعة التالية قالها فى عبد الرحمن بن الأشعث الثائر العراقى الكبير ومهدد ملك بنى أمية الضخم بعد إحدى المواقع بينه و بين الحجاج .

وهم مئتا ألف ولا عقل فيهم ... ولا رأى من ذى حيلة لو تفكرا
رأى طبقاً لا ينقضون عهودهم ... لهم قائد قدامهم غير أعورا
وهيهان لو لم يقطع البحر هارباً ... أثارت عجاجاً حوله الخيل عثيرا
وزهران ألقى فى دجيل بنفسه ... منافقها إذ لم يجد متعبرا
وما تركت رأساً لبكر بن وائل ... ولا للتكيزيّهين إلا مكورا
وأفلت حوّاك اليمانين بعد ما ... رأى الخيل تردى من كميت وأشقرا
رأيت ابن أيوب قد استرعفت به ... لك الخيل من خمسين ألف وأكثرا

فهذه القطعة ألا نستطيع أن نضع لها عنواناً ضخماً فى جريدة سيارة وفى صدر الأخبار المحلية هكذا : « أخبار ابن الأشعث » . أو « معركة بين الثائرين والحكومة » ؟ ؛ انظر إلى البيتين الأول والأخير وأمعن الفكر فى عدد الثائرين وأسماء قوادهم وعدد جيش الحكومة . . ثم انظر فيما بين هذا وذاك صورة هربهم ووقوعهم فى البحر طلباً للنجاة وعبورهم النهر سباحة حين لم يجدوا معبراً ينجيهم .. ألا يصح أن نسمى هذا النوع من الشعر أخباراً محلية ؟ ! ألا ترى أن هذا النظم منتزع من قلب البيئة مستلهم من نفس المحيط ؟ ! وأن ليس للشاعر النظام فيه إلا فضل سلوكه الخبر نظماً فى وزن وقافية بدلا من أن يرسله إرسالاً كنثر عادى ! !

ولم يكن لديه خيال بارع ولا تصاوير نادرة تتحرك فيها الحياة وتنبض . وقليلا ما تقع فى ديوانه على مثل قوله :

أما العدوّ فإنا لا نلين لهم ... حتى يلين لضرس الماضغ الحجرُ

أو قوله :

تنفى يداها الحصى عن كل هاجرة ... نفى الدراهم تنقاد الصياريف

وهو مع جمالة التصويرى ؛ تشبيه مادى ليس فيه خيال عميق . وفى شعره

كثير من الحوادث والقصص والأخبار المحلية وأسماء الأشخاص . . . يحاول أن ينحت منها شعره نحتاً . وانظر إلى القطعة التالية، ألا ترى أنا نستطيع بأن نعدها قائمة أسماء فقط ؟ !

دعمن بحاجب وابنى عقال ... وبالقعقاع تيار الفرات
وصعصعة المجير على المنايا ... بذمته وفكّاك العناة
وصاحب صوأر وأبى شريح ... وسلمى من دعائم ثابتات
بناها الأقرع البانى المعالى ... وهوذة فى شوامخ باذخات
لقيط من دعائمها ومنهم ... زرارة والندى والمكرمات
وبالمعمرين والضمرين نبنى ... دعائم مجدهن مشيّدات

فى ستة أبيات فقط ، حشا ثلاثة عشر اسماً حشواً زجها فى النظم زجّاً ودفعها دفعاً فجاءت صلبة قاسية لا تشعر معها بروح شاعرية مطلقاً .

هذان نوعان من صخور الفرزدق التى ينحت منهما شعره ، على أن هناك أنواعاً أخرى أشد وأصلب تجعل شعره من النوع الصوّانى (granite) لا من النوع الطرى (calcaire) ، ذلك أنه يستعمل التراكيب المرصوصة والألفاظ الصلبة أو الغريبة أو عسرة الفهم أو التى لها معنيان يترك القريب ويقصد البعيد ، وقد يتطاول على النحو أو الصرف ولا يبالى مشقة النحاة وعذابهم فى تعليل ما يقول . ولنعرض بعض أقوال ففيها مقنع ودليل :

قال فى الحجاج :

هو الشهاب الذى يرمى العدو به ... والمشرفى الذى تعصى به مضرُ

قصد بكلمة « تعصى » أى تستعمل السيف عصاً لا أنها فعل مضارع من العصيان .

وقال فى بنى مروان :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمته ... إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

قصد بذلك إلى معنى بعيد يطول شرحه ومداه . يريد أن ملك العرب كان فى الجاهلية لغير قريش وسائر مضر مع أنهم أحق به لفضلهم على جميع البشر .

فلما جاء الإسلام أضحى الملك والإسلام فيهم فعاد إليهم ما كان قد خرج من أيديهم ! !

وقال :

إذن لتغـالت بالفـلاة ركابنا إليك بنا يخدين مشياً عشنزرا

فما هو العشنزر ؟ وقوله :

تبكى البغايا ورجلا كل فاجرة والزنكلنك على قبر ابن روّاد

فما هو الزنكلنك ؟ وقوله :

حرب ومروان جداك اللذا لهما من الروابى عظيمات الجماهـير

يقصد بالجماهير : الروابى الرملية الضخمة . وفى استعماله اللذا تكلّف آخر

وقوله :

وما مثله فى الناس إلا مملـكاً أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربـه

وقوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجـرف

ويكثر من استعمال الكلم الغريب مثل : حراجيج . دهمج . عَ الماء « بدلا من على الماء » محدرجة ، قراسيات ، معلهج ، عوهج ، مطرخم . نبىّ « يقصد بها المكان المرتفع » جرنبذة . دلنظى . . . إلخ .

بل ما لنا نذهب بعيداً وأسماء أولاده مثال حىّ لذوقه البدوى القاسى فى الاختيار : حبطة ، لبطة ، سبطه ، ركضة ، زعمة ، كلطة ، جلطة ، . . . إلخ.

وقد يشير أحياناً إلى حوادث ووقائع لا يمكن تفسير البيت بدون معرفتها . ولذلك يعسر كثيراً فهم مراده الحقيقى مما يقصد . لأن كثيراً من الحوادث مجهولة لا نعرف عنها شيئاً . وهو يشير إليها إشارة عابرة كأنها مشهورة جداً ، وقد يعود الذنب فى ذلك على التاريخ لا عليه ، ولكن ما حيلة التاريخ نفسه فى حوادث تافهة بين قبيلتين أو فرعين منها لا قيمة لهما ؟ !

ويظهر أن داء الغرابة والتقعر كان فاشياً فى أدباء ذلك الزمان فشوّاً هائلاً فتزعمه الفرزدق وحمل علمه بما ركب فيه من طبع بدوى جاف ، يؤيد ذلك

ما روى عن السيد الحميرى — وكان شاعراً علوياً رقيقاً ولكن ضاع أكثر شعره لإفحاشه فى بعض الصحابة وأزواج النبى — سئل هذا الشاعر مرة عن هذه الرقة فى شعره وقيل له : مالك لا تستعمل من الغريب فى شعرك ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ !

فقال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذّه من سمعه خير من أن أقول شيئاً معقداً تضل فيه الأفهام » .

والذى نعتقده أن احتياج الفرزدق للفخر الدائم فى كل قصيدة جعله يتخيّر من الألفاظ أصلبها ومن التراكيب الصخرية أقساها لتتساوق وجعجعة الفخر لأنها تملأ الماضغين وتدردب فى الأذنين كالطبل . انظر إلى قوله :

حراجيج بين العوهجى وداعر تجر حوافيها السريح المقدّدا

ألا تحتاج فى تفسيره إلى نصف ساعة تضيع بين قواميس اللغة وكتبها ؟ ! ثم لا تخرج من هذا النصب المضنى والسياحة الطويلة فى معاجم اللغة على معنى كبير ولا صورة ذات قيمة . أليس هذا ما جعل القدامى يقولون : « لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة » ؟ ! !

٦ — مآخذ على الفرزدق

أخذ القدماء على الفرزدق بعض هنات أخلاقية كجبنه وتجبره وإغراقه فى الفسوق حتى فى مدينة الرسول . وبعض هنات لغوية وأدبية كتطاوله على النحو والصرف وبعض الإيطاء والتضمين والمبالغات وإغارته على الشعراء وسرقة أبياتهم علناً ورغماً . يسمع البيت الجيد فيقول لصاحبه : « أتتركه لى أم تترك عرضك » . فيضطر المسكين إلى تركه خوفاً من لسانه ، فيدسه الفرزدق فى قصيدة من قصائده وينسب بعد ذلك إليه ؛ من ذلك أخذه من الشمردل قوله :

وما بين من لم يعط سمعاً وطاعة وبين تميم غير حزّ الغلاصم

ومن ابن ميادة قوله :

لو ان جميع الناس كانوا بربوة وجئت بجدى ظالم وابن ظـالم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجمـاجم

وأبدل دارماً بظالم فصار البيت : « وجئت بجدى دارم وابن دارم » وهو من أسير أبيات الفرزدق .

ومن جميل بثينة قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ومثل هذا كثير . ومن مبالغاته قوله :

ولو أن عصفوراً يمدّ جناحه على طيئ فى دارها لاستظلت

وقوله :

أبوك الذى تستهزم الخيل باسمه وإن كان منها سير شهر مطرّد

ومن إقوائه :

لو أن أشيم لم يسبق أسنتنـا وأخطأ الباب إذ نبراتنا تُقد
إذاً لوافق مسعوداً وصاحبـه كلاهما خارج الأعفاج والـكبدِ

ومن تضمينه قوله :

يجود وإن لم ترتحل يابن غالبٍ إليه ، وإن لاقيته فهو أجـود
من النيل إذ عم المنار غثاؤه ومن يأته من راغب فهو أسعد

وقوله :

إلى أسد سارت برحلى وخاطرت عوادى من غلب يكاد زئيرها
تصدّع منه الأرض وهى صحيحة إذا سمعته أو تقالع قورها

وبعد ؛ فإذا كانت هذه كل هنات الفرزدق وما يعدّ عليه من معايب ؛ فما أحرانا أن نعلق عليها بقول المتنبي : « كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه » .